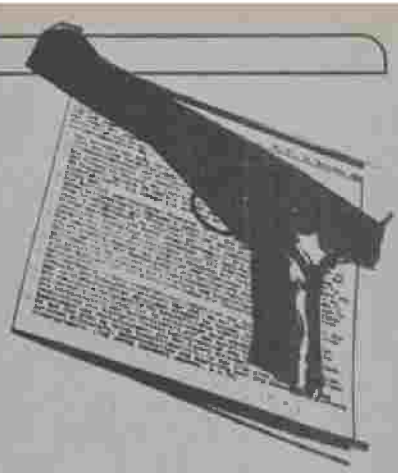

البارون المزيف

زهيرة البيلى

عاش الكهنة والمسئولون عن القصور فى انمسا حالة من الفزع. كان البوليس خلالها على أهبة الاستعداد. ففى عام ١٩٦٨ تمت مجموعة من السرقات الجريئة من الكنائس والكاتدرائيات والقصور الأثرية واستولى اللصوص على كميات من التماثيل واللوحات الثمينة.

عن عمل هؤلاء اللصوص هذه المرة بالذات والفارق الفنى الكبير. الذى جعل الناس يظنون أن الأمر لايتعلق بسرقات عادية. فقد استولى اللصوص على لوحات نادرة لبطرونة من جزيرة «كريت» وتحف وتماثيل نادرة. هذا النوع والاختيار كشف عن شخصية لصوص هواة متميزين الشىء الذى جعل تجار الأثريات وبائعى التحف بسويسرا يعرضون لعملائهم مجموعات من أجمل التحف الدينية. معظم هؤلاء التجار لايعرفون مصدر هذه البضاعة الأثرية. ولكن لم يعفهم هذا من المسئولية الجنائية.

اذاعت سكرتارية الانتربول قائمة بالتحف المسروقة. ثم العثور على بعض منها عند بائعى التحف تمديك زيورخ الذين لم يتورعوا عن مناقشة الأسعار وتحمع مع التلاث المتهمين الأصليين. وعندما تم القبض أخيرا على الرأس المدبر لتلك العمليات التى وصلت قيمتها إلى مليار من الدولارات اكتشف رجال البوليس أنه يلقب نفسه «بارون الفحم». هذا لأنه كان يعمل منذ عدة سنوات فى تجارة الفحم. أما ظروفه الاجتماعية ولأنه مطلق تطلبت منه مصروفات غير عادية. خاصة أن تجارة الفحم لم يشأ أن يحرم نفسه من أطياب الرغدة. وبعد مغامرات عديدة جعلته يتزوج ثانيا من الخير والشر. خطرت بباله فكرة انشاء أو تكوين شركة كان أول استيرادها المتواضعة كميا صغيرا عبارة عن مرشد سياحى عن هذا الكتيب. وعندما دقيقا لأهم وأندر التحف التى تمتلىء بها الكنائس والقصور الأثرية النمساوية من بين صفحات هذا الكتيب السياحى أم البارون الخيالية الذى كان عبارة عن لوحات وتماثيل «للعذراء» تتاح بسهل للفارس بشابه. كانت جدة هى الصفة أو الصفة الاجتماعية لعمل تلك الشركة الجديدة ألا وهى سرقة التحف والأعمال الفنية النادرة.

بعد أن عمق «البارون» معلوماته بالمزادات المختلفة فى هذا المجال بالذات. قام بالاتصال بأحد شركاته وعن طريق جهاز الاستقبال. أخذ «البارون» يفحص التماثيل الصغيرة ليتأكد مما إذا كانت متناسقة حقا وحتى تباع بأغلى الأسعار. فقد اختير تخصصه فى هذا النوع من السرقات بالذات. وأثناء الفحص عليه بدا «البارون» فى غاية الأناقة يدفع بسخاء لنسخ أو سعة من العملاء. بعد أن حكم عليه بالسجن لمدة خمس سنوات. كان يتمتع بالذكاء الشديد إذ أنه تصرف كسجين مثالى. وبسبب حسن سيرة وسلوكه تم الافراج عنه فى عام ١٩٧٣.

ولكن ليستأنف من جديد وبعد مرور عام واحد سرقة التحف النادرة على أوسع نطاق. سرقت فى شهر نوفمبر أربع كاتدرائيات فى الريف وفى شهر ديسمبر تم سرقة خمس كاتدرائيات فى فيينا. وعلى الفور تولى الانتربول إذاعة تلك الأنباء. لعلم أوربا كلها. وبالطبع كان «البارون المزيف» هو أول من تم استجوابه.

هذا «البارون» مسئولا. وقتذاك. دخل مستقلا هذا الرياضى الأنيق. مدير تلك الشركة الكبيرة كان فى الخامسة والثلاثين من عمره أمام البوليس كانت احاباته دقيقة ومحددة. «انت ترى الآن لا دخل لى بهذه القضية ويمكن أن تتأكد من هذا بنفسك ومن شركائى أيضا. عملى الآن ينحصر فى بيع التحف والمارون ومع ذلك فإنى تحت تصرفك».

لم يقنع ضابط البوليس - الذى كان قصير القامة وبدينا - بكلام ذلك «البارون» الذى اشترك معه فى بعض الصفات. كان الضابط ابقا. اشد عصبية من «البارون» نفسه. مليئا بالذكاء - الثقيا فى تقطيب أساريره كما الذكاء والدهاء.

حضع سوق التحف المسروقة لنفس قوانين الأسواق الأخرى. فزيادة البضاعة المطروحة أى زيادة العرض ادت إلى إغراق بائعى التحف السويسريين بالتماثيل واللوحات التى، الذى ادى إلى انخفاض الأسعار.

لم تتوصل إلى أسلوب جديد فى التسويق. الا وهو إعادة بيع التحف المسروقة لأصحابها الأصليين. وهذا السبب فى جرس التليفون فى صباح أحد الأيام فى منزل أحد الأساقفة ليساوم على بيع لوحة مشهورة سرقت من الكاتدرائية التى يصلى بها. طلب اللصوص فى هذه اللوحة حوالى مائة وثلاثين الف مارك وهو مبلغ يعتبر عشر قيمتها الحقيقية. وهنا أصيب الأسقف بالصدمة وقال ان اللوحة تلك لاأستطيع وأنه ليس له الحق فى تفاوض مثل وأطلق الأسقف سراح الليفون فى الحال. وتأكد القس من أن عملية إعادة بيع التحف لأصحابها لاتعتبر أسلوبا ناجحا.

فى شهر فبراير عام ١٩٧٦ أصبحت القصور النمساوية هدفا للصوص ونفذت عمليات السطو للإستيلاء على كميات من الأسلحة النادرة واختلت السوق السوداء بالتحف، والدروع والخناجر المرصعة بالماس. ولم يكن للبارون حقيقة أى دخل فى هذه العمليات الأخيرة.

ولكن مع ذلك صبح «البارون» لرجال البوليس بتفتيش المخازن التابعة لشركته الكبيرة.

كان الضابط القصير على علم أن «البارون» ليس بغباء. حيث يحتفظ بعمائد الفية داخل مخازن الفحم. فلابد أن هذه السرقات بعث بها خارج الحدود لذلك لم يبق أمام البوليس سوى الاتصال بالسكرتارية العامة للانتربول.

فى مساء يوم ٢٧ أكتوبر عام ١٩٧٧ وفى حارس أحد القصور فى جنوب شرق النمسا خدمته وأثناء قيامه بالدورية على دراجته النارية مع حليفا وسط الظلام فجرى فى اتجاه فناء القصر فلمس ان الشبح لرجل يهرب فى اتجاه سلم حشى كبير نست على الحائط. اخرج الحارس سلاحه واطلق طلقتين فى الهواء لإطمئنان نفسه فقط. وانضم هذا الشبح رجل آخر. وتسلقا بسرعة السلم ثم قفزا بواسطة حبل إلى الجانب الآخر من الحائط والذى كان على ارتفاع عشرين مترا. تاركين وراءهما كميات من الأسلحة النارية وبعض أدوات من معدنيها. وكان مايلزم لضرصا فى سرقة.

استحوب الضابط القصير فى اليوم التالى الحارس واخذ يفحص حذيته بكل دقة وانتباه. استمع إلى وصف كامل عن اللصين. كان الحارس قد لاحظ عشية هذا الهجوم واحدا منهم والأكبر طولا أثناء الزيارة العادية للجمهور لمتحفى الشاهد لأنه كان يضع أنفه فى كل كبيرة وصغيرة إلى درجة أن الحارس اضطر وأعدة مرات إلى توجيهه إلى الطريق السليم بعيدا عن المناطق الممنوعة. كان رجلا ضخما. حسيد ملىء بالعضلات شعره أشقر يميل إلى الحمرة. فحت ذين أنه من سكان فينا.

قام الضابط القصير بزيارة مفاجئة لكل التجار الذين يبيعون الأدوات الرياضية فى فينا ليعرف إذا كان قد ذهب إلى محاله أحد يطلق عليه حذه الأوصاف. وهنا أخبره أحد التجار أنه منذ خمسة عشر يوما باع معدات كاملة للتسلق لرجل ضخم له شعر أحمر تقريبا.

وفى دكان آخر تذكرت البائعة أنها فى نفس الفترة تقريبا. جاءت امرأة شابة تميل عقلا صغيرا واشترت معدات وادوات ثقيلة لزوجها. وكان بالفعل أحد أصدقاء «بارون الفحم» - ضخما شعره أحمر - وكان أحد شركائه قد زرق نوا تزلود وأمام هذه المعلومات الجديدة قرك رجل البوليس القصير بديه فبهجا. فى هذه الأثناء قامت لقط حدود سويسرا وايطاليا بتفتيش السيارات التابعة لشركاء وأصدقاء البارون حتى جاءت إحدى هذه السيارات التابعة للشركة الكبيرة وبداخلها لالاة رجال فى حوزتهم كميات من الأسلحة القديمة الأثرية والنادرة. ولكن عندما حاول ضابط البوليس - وفى مكتب البارون - شرح أسباب هذا القبض لم يبد على «البارون» القلق أو الدهشة. ولكنه سأل ببساطة إذا كان الأمر يتوقف عند الاستجواب أم الاعتقال وهنا أخرج «البارون» من درجه حافظة صغيرة بها بعض المتاع اللازم.

هذا الضابط القصير حالا. احد يتأمل هذا البارون» الواثق من نفسه ولكن مع ذلك حدثته نفسه أن الأمر لم ينته بعد فاطمئنان «البارون» جعله يتأكد أنه أعد حقيبات واستعدادات مقدرة وممكنة.

وبالفعل وبعد عدة أيام قطن رجال البوليس إلى أن سرقة الأسلحة القديمة قيمتها عالية وقد تمت أخيرا سرقة أحد القصور الأثرية. ولوجه الضابط المسئول عن التحقيق على الدور إلى أسفل الصخرة الوعرة حيث ارتفع القصر الكبير. كانت الجدران سميكة يبلغ عرضها حوالى مترين. عرفت عضلاتها فقد مرن أن قاومت عدة مرات هجمات الأتراك. ولاحظ رجل البوليس فى أعلى الجدران فجوة كبيرة هى إحدى النوافذ. حيث دخل اللصوص. الشىء الذى وضح أن اللصوص معتادون على هذه العمليات ويتحملون الدوار. فلابد أنهم أناس ماجرون حقا. استطاعوا الدخول إلى هذا القصر الذى لايظهر. والاحتمال الوحيد أن واحدا منهم أثناء الزيارة المعتادة للجمهور قد خلف فأغلق عليه الباب. وفى أثناء فتح النافذة لدلى أفراد العصابة شركاءه الذين لجحوا فى

تسلق الصخرة العالية وبواسطة منظار دقيق أخذ رجل البوليس يفحص آثار أقدامهم وبصعوبة اكتشف رجل البوليس ومن على منحدر توافى عرضه عشرون سنتيمترا فقط آثار أقدام فوق هذا المنحدر تقدم الفحوص بصعوبة تحت النافذة المفتوحة ومن هذا المكان الوعر تسلقوا حافة النافذة ومنها إلى الفناء الداخلي للقصر. وبعد أن استخدموا معداتهم الكاملة نجحوا في فتح الأبواب الضخمة حتى وصلوا إلى قاعة الأسلحة. كان من الواضح أنهم استكشفوا المكان من قبل. فقد عمل الفحوص كخبراء إلى درجة أنهم نجحوا في نقل واجهة زجاجية كاملة دون ترك أي خدش أو أثر. كانت العناصر صغيرة هذه المرة. عشرات من الأسلحة يرجع تاريخها إلى القرن السادس والسابع عشر مجموعات نادرة من التحف بلغت قيمتها حوالي مليون مارك.

حقيقة إن الضابط القصير لم يصدق الدوار إلا أن حيرته بدت مضاعفة.

أولا: كان من المستحيل على الشركة الكبيرة أن تستمر في عملها أو نشاطها بلا مدير «فالبارون» وحده هو الذي يتمتع بالذكاء المطلوب. أما الباقي فكانوا من اللصوص العاديين الذين تنقصهم القوة والحزم.

ثانيا: بعد أن أغلقت الحدود بإحكام وأحكمت عمليات التفتيش ساد الشرق كساد فعلي. وخاصة بعد أن الحق بالضاحة المسروقة. فأين إذن يكمن الخطر؟

جاءت إشارة عاجلة من البوليس واشنطن تفيد أن أمريكيا ثريا من هواة جمع التحف النادرة — هذا الأمريكي متهوك في زاويته — غادر الولايات المتحدة في طريقه إلى النمسا. سافر دون أن يحق لنساب رحلته. أوضح أنه قد عرضت عليه لوحة شهيرة تبلغ ٨٠٠ ألف دولار. ولكن من هم هؤلاء الذين عرضوا عليه اللوحة؟ فلا أحد يعرف هذا.

أما اللوحة فلم يكن لها مثيل في السوق. واختفت تماما عن اللوحات الثلاث التي سرقها «البارون» منذ عشر سنوات. والتي مازال يحتفظ بها باسم شركته الكبيرة. وحقيقة أن البوليس لم يعثر أبدا على هذه اللوحات وكذلك الأقنعة الشهيرة. الشيء الذي يوضح أن الشركة تمارس نشاطا مجهولا وتجارة قاتلة الأمثول بالتوحات السرية التي بيعت أو تم شراؤها بالفعل. يلاحظ أنها لا تمثل سوى جزء صغير أو عشر المسروق كله. وهذا يعني أن مخزن هذه الشركة يبلغ مليارات ومليارات أي تسعة أعشار المنهوب من التحف. اذن فالعمليات كلها لم يقم بها لصوص عاديون. ولكن شركاء «البارون» استمروا في العمل من بعده. أقام الزنجي الأمريكي بفندق هيلتون حيث تحت مراقبة البوليس عن طريق رجال الأمن الخاصين. حتى جاءت مكالمة أثارت انتباه الضابط القصير بعد عدة عبارات عادية طالب الزنجي الأمريكي من محدثه تحديد موعد حضور الزائر مستفسرا عما إذا كان سوف يأتي بمفرده. أو إذا كان سيحضر معه المواد المطلوبة. وأوضح الزنجي أنه لايستطيع تسليم مبلغ ضخم إلا لرجل مهم ومسئول. وبعد أن طمأنه المتحدث انهت المكالمة.

نجح البوليس في تحديد مكان المكالمة التي جاءت من أحد الملاهي التي كان يرتاد عليها «البارون». أما الساقي أو الوسيط بين الزنجي الأمريكي فكان معروفا من قبل البوليس كمهارب من العدالة. وعلى الفور قرر الضابط القصير احتجازه وكانت لديه الخطة المناسبة.

في الساعة السادسة والنصف عندما هم الساقي بركوب سيارته قبض عليه رجال الأمن في الطريق العام. فحطم زجاج سيارته محاولا الهرب. وسط الزحام لكنه كان مطوقا من كل جانب وكانت اللوحات الثلاث في حقيبة سيارته. وفي مركز البوليس انهال الضابط القصير على الساقي بالأسئلة. مصرا على معرفة هذا الزائر الذي يتوجه في موعده إلى فندق هيلتون. وعندما سمع رجل البوليس باسم «باكان» لم يصدق نفسه وتصور أن الساقي يسخر منه فكيف يدعي أن شخصية مرموقة على اتصال بشخص مثله. لص من الدرجة الثالثة؟

هذا الباكان. أنشأ في عام ١٩٢٦ شركة موقتة. ثم تكون شركة كبيرة متخصصة في المعدات الفنية الهندسية. حيث عمل تحت لوائه آلاف عامل. ثم تكون شركة تساوية للنقل والتجارة. تملك طائرة خيت. ومنزلا في باهاما وفيلته في فينا لإقامة وتمتع وعمل لنفس طريقة أفلام جيمس بوند. اعتاد على إقامة الحفلات الفاخرة التي يحضرها علية القوم من رجال الاقتصاد والسياسة من الأساقفة ومن نجوم السينما. دون أن يعرفوا أو يشعروا أن وراء كاميرات وميكروفونات خفية تسجلهم في كل مكان. مجموعة من الأفلام الفنية تتم تحت حراسة أحدث أساليب الابتزاز العصرية. في سن الخامسة والثلاثين عين مستشارا رئيسيا وطبوحة وذكائه وصل إلى أعلى المناصب في النمسا.

عندما أصر الساقي على أقواله كان يستحق لطمة حقيقية ولكن تراجع الضابط انتظارا للميك الموعد لشدق هيلتون. وحتى يتأكد بنفسه من تلك الأكذوبة وبعد أن أحس الساقي أنه لامفر من الاعتراف أطفئ بكل هدوء.

حكى أنه عندما تم القبض على «البارون» طلب الأخير من الساقي الظاهر أن يبيع باقي اللوحات. فتولى الساقي شئونه ووجد عميلا جديدا وهو «باكان» الذي بدت له العملية سهلة. وكان أمام «باكان» الوقت الكافي فأحد الضاحة التي وقع فيها عشرات من الطيارات من الشركات على أن يتم هو بيعها شيئا فشيئا وعلى أن يدفع للشركة الكبيرة نسبة معينة وقد تقل كمقدم حوالي ٩٠٠ مليون مارك. أما العميلة فكانت داعل مخازن احد الفنادق في «تيرول» والتي لايعرف مكانها إلا «باكان» نفسه.

في هذا المساء في عام ١٩٧٧ اقام المستشار حفلة راقصة ساهرة ليلة من ليالي ألف ليلة. احتفع فيها القصر من الساسة والنظر الجميع وصول المستشار التجاري النمساوي الطيار «باكان» حتى جاءت سيارة الرولزرويس تقف أمام المبنى الضخم ولكن ليترل منها الساقي فقط.

المستشار حجز في فندق هيلتون لأنه كان على موعد عاجل لذلك جاء الساقي يقدم الاعتذار.

وفي احدى حجرات فندق هيلتون وأمام دهشة الزنجي الأمريكي الذي وضع على المائدة ٨٠٠ ألف دولار. خالب اللوحات الثلاث. فلم الضابط القصير فجأة ليضع القيود الحديدية في يد المستشار صاحب الخامسة والثلاثين سنة. المفتوح الوجه صاحب الشعر الأسود المموج العينان يشع منهما ذكاء غير عادي. وطبت بعض التفاصيل السهلة. فهذا الأخير لم يلتق أبدا «بارون الفحم» ليس هذا فقط لأن البارون كان في السجن ولكن لأن الشركة الكبيرة لم تكن في الحقيقة سوى شركة وهمية لا وجود لها.

تصميم محمد ابراهيم